الدرس الثاني : الجذور التاريخية لأدب الهامش

يُعد أدب الهامش مرآة عاكسة للمسكوت عنه في المجتمع، وهو الأدب الذي ينشأ خارج رعاية المؤسسة الرسمية (السياسية، الاجتماعية، أو الأكاديمية). ارتبط هذا الأدب تاريخياً بفئات نبذها المركز أو أقصاها، فصاغت لنفسها خطاباً أدبياً موازياً أو متمرداً يتحدى السائد ويخترق البنيات التقليدية.سنتتبع جذور هذا الأدب في الدراسات العربية والغربية.

أولا: جذور أدب الهامش عند العرب:

أ_ في الشعر:

يُعد الشعر الجاهلي ديوان العرب ومنصة تهميشهم الأولى، ففي ظاهرة الصعلكة نجد خروجاً صريحاً عن "المركز القبلي" الذي مثل المؤسسة السياسية والاجتماعية آنذاك. لم يكن الصعلوك مجرد قاطع طريق، بل متمردًا صاغ بفروسيته خطاباً أدبياً يقدس الحرية والمساواة، مستبدلاً الانتماء للقبيلة بالانتماء للطبيعة ووحوشها.

تجلت بذور هذا الهامش في ثلاث فئات متمردة:

1_ **الأغربة السود:** وهم أبناء الإماء الحبشيات الذين هُمشوا وأنكرهم آباؤهم لسواد بشرتهم، مما دفعهم للثورة صوناً لكرامتهم الشخصية، ومن أبرز أعلامهم تأبط شراً والشنفرى الأزدي صاحب "لامية العرب" والسّليك بن السلكة.

2_ **الخلعاء:** وهم الذين تجاوزوا الإطار المعيشي للقبيلة فتبرأت منهم وطردتهم، مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية.

3_ **الفقراء المتمردين:** الذين تصعلكوا نتيجة الظروف الاقتصادية المزرية ورفضاً للنظام الإقطاعي، ويتزعمهم عروة بن الورد الذي جسد "الهامش المُصلح" بسعيه لتحقيق العدالة الاجتماعية وتقاسم الغنائم مع الفقراء.

ومن أشهر القصائد التي جسدت هذا التمرد "لامية العرب" للشنفرى، التي افتتحها بدعوة صريحة للهجرة عن المركزية القبلية واختيار "هامش" الصحراء وطناً بدِيلاً:

أَقيموا بَني أُمّي صُدورَ مَطِيَّكُم فَإِنّي إِلى قَومٍ سِواكُم لأَمْيَلُ

فَقَد حُمَّت الحاجاتُ واللَيلُ مُقمِرٌ وَشُدَّت لِطِيّاتٍ مَطايا وَأَرْحلُ

حيث أعلن استبدال الأهل البشريين بالوحوش (الذئب، النمر، والضبع)، معتبراً إياهم الرهط الحقيقي الذي يحفظ السر ولا يخذل:

وَلي دونَكُم أَهلُونَ سيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرقَطُ زُهلولٌ وَعَرفاءُ جَيأَلُ

هُمُ الرَهطُ لا مُستَودَعُ السِرَّ ذائِعٌ لَدَيهِم وَلا الجاني بِما جَرَّ يُخذَلُ

لقد عكس نتاجهم الأدبي نزعة واقعية موغلة في القسوة، حيث تخلصوا من المتن التقليدي والمقدمات الطللية ليركزوا على مضامين الهامش من وصف للجوع، والفقر، وآلات الحرب، والليل والحيوانات. وبذلك تحول الحرمان والتهميش إلى طاقة إبداعية جعلت من قصائدهم صرخة احتجاجية ضد قيود المجتمع.

ب_ النثر:

انتقل الهامش في العصر العباسي من الفضاء المفتوح (الصحراء) إلى زوايا المدن ، لينشأ ما يعرف بـ "أدب الكدية". هذا اللون النثري هو نتاج مباشر لجدلية "الفقر والاضطهاد" التي عاشتها فئات عريضة خارج دوائر البلاط والرخاء، حيث تحولت "الصعلكة" من تمرد بالسيف والعدو في القفار إلى تمرد بالكلمة والحيلة داخل المجالس والأسواق.

وقد تجلى هذا التحول بوضوح في "فن المقامة"، الذي ابتكره بديع الزمان الهمذاني وتلاه فيه الحريري، فالمقامة في جوهرها حكاية قصيرة تعتمد "الكُدية" _طلب المال بالحيلة والأدب_ موضوعاً أساسياً لها. ومن خلال شخصيات خيالية ثابتة، مثل البطل المحتال "أبو الفتح الإسكندري" وراويته "عيسى بن هشام"، استطاع هذا الفن توثيق حياة "المكديين" الذين اتخذوا من البلاغة والفصاحة أسلحةً لاختراق مراكز القوة واستجداء المال.

تبرز "المقامة البغدادية" كنموذج رائد لهذا الفن، حيث تظهر فيها المفارقة بين ثراء المدينة وبؤس المهمش، فيتحول الأدب فيها من وسيلة للمدح والتعلم إلى "أداة احتيال" ذكية لانتزاع الرزق. إن أدب الكدية ليس مجرد حكايات طريفة أو

دعابة، بل هو خطاب احتجاجي مستتر يقلب موازين القيم التقليدية؛ حيث يصبح "المحتال" بطلاً لنص نثري يتسم بالسجع والبديع، مما يعيد تعريف الأدب بوصفه صوتاً للمحرومين الذين أدركوا أن "العقل واللسان" هما السلاح البديل لمواجهة الإقصاء الطبقي والمكانة الاجتماعية المسلوبة.

ثانيا: جذور أدب الهامش عند الغرب:

تشكل أدب الهامش الغربي عبر ثلاث محطات مفصلية، انتقل فيها من مجرد "شخصية هامشية" إلى "رؤية للعالم:"

1_ مرحلة التأسيس (رواية الشطار) : يُمثل "أدب الشطار" في القرن السادس عشر بإسبانيا المنعطف الأبرز في تاريخ أدب الهامش الغربي، حيث ظهر كصوت احتجاجي ضد أدب الفُروسية المثالي الذي كان يمثل "المركز الأرستقراطي". قدمت هذه الروايات بطلاً يُدعى (PICARO)، وهو شاب من قاع المجتمع لا يملك قوة الفرسان ولا نبلهم، بل يعيش على الهامش المكاني والاجتماعي مستخدماً الحيلة والمراوغة للبقاء. وقد نجح هذا البطل في كسر هيبة البطل التقليدي وجعل من "الفقر" مادة للسرد الأدبي، معتمداً على بنية "السيرة الذاتية الكاذبة" التي تتسم بالواقعية والسخرية من نفاق المجتمع. وتُعد رواية "لازاريلو دي تورميس" (1554) النص التأسيسي الذي أرسى معالم هذا الفن بتصويرها لطفل يخدم أسياداً متعددين لتأمين لقمة عيشه، تلتها أعمال رائدة مثل "غوثمان دي الفاراتشيه" لماتيو اليمان، و"حياة الشقي" لفرانسيسكو دي كيفيدو. انتقلت هذه العدوى الأدبية لاحقاً إلى الأدب الإنجليزي والفرنسي (مثل "توم جونز" و"جيل بلاس")، مما جعل من "الشاطر" الجد الشرعي لكل شخصيات الهامش اللاحقة في الرواية الحديثة، محولاً الجوع من عوز مادي إلى طاقة سردية تفكك مراكز القوة والزيف الاجتماعي.

2_ مرحلة التحول الاجتماعي: مع تبلور الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر، حدث تحول جذري في مفهوم الهامش، إذ انتقل التركيز من البطل الذي يعتمد على ذكائه وحيلته الفردية للبقاء، إلى 'الطبقة المسحوقة' كجماعة تعاني من الظلم الجماعي. وقد تجلى هذا بوضوح في المتخيل الروائي العالمي، حيث أرّخ فيكتور هوغو في روايته "البؤساء" لمعاناة الجائعين والمهمشين قانونياً في فرنسا، وصور تشارلز ديكنز في رواية "أوليفر تويست" مأساة الأيتام وضياع الطفولة في ظل

الطبقية الإنجليزية. كما امتد هذا النفس ليشمل المدرسة الطبيعية عند إميل زولا في روايته "جيرمينال" التي جسدت بؤس عمال المناجم، وصولاً إلى فيدور دوستويفسكي في "الجريمة والعقاب" حيث غاص في الهامش النفسي والاجتماعي لفقراء المدن، وماكسيم غوركي في مسرحيته "في القاع" التي جعلت من حياة المشردين والمنبوذين متناً أساسياً للعمل الأدبي. وبذلك، كفَّ الهامش عن كونه مجرد حيز مكاني، ليصبح قضية إنسانية كبرى تستهدف تعرية القوانين الجائرة وفضح انحيازها للمركز الرأسمالي.

3_ **المرحلة الفلسفية (ما بعد الحداثة)** :هنا انتقال الهامش من مجرد موضوع وصفي إلى أداة نقدية ومعرفية لتفكيك الخطاب السائد، فمع أطروحات ميشيل فوكو، أصبح الهامش هو العدسة التي تكشف آليات السلطة، حيث أوضح في دراساته حول تاريخ "الجنون" و"السجن" أن المركز هو من يخلق الهامش ليعزل ويقصي كل من يهدد نظامه. وبناءً عليه صار أدب الهامش المعاصر يتبنى استراتيجية إعادة كتابة التاريخ من منظور المقهورين، ويتجلى ذلك في نماذج عالمية رائدة، مثل توني موريسون في رواية "محبوبة" التي تعيد كتابة تاريخ العبودية من وجهة نظر المرأة السوداء لتفكيك المركزية العرقية، وفرانتس كافكا في رواية "المحاكمة" التي تجسد الهامش الوجودي للفرد في مواجهة البيروقراطية، وتشينوا أتشيبي في رواية "الأشياء تتداعى" التي تقلب الطاولة على الرواية المركزية الغربية لتحكي القصة من منظور الهامش الأفريقي، ومارغريت أتوود في رواية "حكاية الجارية" التي تستعرض الهامش النسوي في مواجهة الأنظمة السلطوية. وبذلك، لم يعد الهامش مجرد صرخة استجداء، بل أصبح قوة فكرية قادرة على تحليل المركز واسترداد الرواية التاريخية المغيبة.

وفي الختام يمكن القول أن أدب الهامش قد تدرج تاريخياً من تمرد "السيف" عند الصعاليك الذين استبدلوا القبيلة بالطبيعة ، إلى تمرد "اللسان" في مقامات الكدية التي جعلت من الاحتيال الأدبي سلاحاً لمواجهة الإقصاء الحضري. وانتقل في الغرب من سخرية "الشاطر" ضد الأرستقراطية إلى قضية طبقية وفلسفية تفكك آليات السلطة وتعيد كتابة التاريخ من منظور المقهورين. وبذلك، لم يعد الهامش مجرد صرخة استجداء، بل أصبح قوة فكرية قادرة على نقد المركز واسترداد الرواية التاريخية المغيبة.